مكتبة البحث
قسم الدوريات

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد الثامن
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

غير مصرح بإخراجه من المكتبة

التاريخ بين ثقافتين

أ. د. عدنان محمد زرزور
الأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

الثقافة عندنا هي المعارف التي تتعامل مع الإنسان أو التي يكون «موضوعها» الإنسان. ونعني بذلك الانسان في جانبه الفكري والأدبي والاجتماعي، ولهذا فنحن مع الذين استعملوا هذا المصطلح – ثقافة culture – للدلالة على «الرقي» فى هذا الجانب للأفراد والجماعات. على الرغم من عشرات التعريفات التي قيلت في الثقافة، أو جعلت الثقافة علماً عليها كما هو معلوم. ونميز الثقافة بذلك عن «العلم science » أو العلم التجريبي بعبارة أدق.. الذي يتعامل مع الكون أو الطبيعة. ولهذا فإن الثقافة في حقيقتها سلوك، أو هي نظرية في السلوك اكثر من كونها نظرية في المعرفة، كما يقول الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله[1] بمعنى أنها وإن كانت من الوجهة النظرية «معارف» تدّون وتلقن أو تتداولها الأجيال في سياق خفي وعميق ومعقد.. إلا أنها من الوجهة العملية سلوك وممارسة، لأنها ليست «شيئًا» مفصولًا عن الإنسان، بل إن موضوعها هو الإنسان نفسه كما قلنا، ومن ثم فإن تعامله معها أو مع عناصرها المتشابكة والمعقدة سوف ينعكس على سلوكه، ويحدد له من ثم سمات «شخصيته». وهذا هو أساس الربط بين «الثقافة والشخصية» من جهة، وأساس التمييز بين أنواع «الشخصيات» التي تتوازعها ثقافات الأمم والشعوب، في خارطة ثقافية واضحة السمات.. من جهة أخرى.

---

(١) شروط النهضة، صفحة ٨٢ طبع دار الفكر بدمشق

- ١ -

هذا التقسيم أو التوجه في هذا التعريف الشامل للثقافة قائم كما هو واضح على أساس التمييز بين الطبيعة والانسان، أو بين الطبيعة الخارجية (الكون) ، والطبيعة الذاتية (الانسان). وهو تمييز أو تفريق ملحوظ في بعض آيات القرآن العزيز، قال تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون»[٢] وقال تعالى : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم..»[٣] . على الرغم من أن القرآن الكريم سمى كلا النوعين من المعارف المتصلة بالطبيعة وبالانسان «علما».. ولهذا دلالته العميقة القائمة على أن ما ذكره القرآن في باب أصول الحياة الانسانية أو في باب سلوك الأفراد والأمم والجماعات - أي ما يجب عليهم فعله والمصير إليه في هذا الباب - له حقيقة «العلم» وثباته أيضاً، وقد عرضنا لهذه النقطة بالبحث في مناسبة سابقة بوصفها استثناء من الملاحظة التي نوردها بعد قليل تعقيبا على تقسيمنا المشار إليه، والذي بنينا عليه في الماضي جملة من الملاحظات والآراء. والذي نضيفه الآن هو أن العلم التجريبي ينبغي ألا يقابل بما يسمى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. أو الإنسانيات! بل يجب أن يقابل بثقافات الأمم والشعوب، لأن لكل أمة ثقافتها أو سلوكها.. أو طريقتها الخاصة في الحياة!

وحين نضع هذا العنوان أو المصطلح - علوم إنسانية واجتماعية أو انسانيات وعلوم اجتماعية - أو نمضي في وضعه في مقابل العلم التجريبي أو العلوم التطبيقية وعلوم الطبيعة، فإننا نقع في وهم الاعتقاد بوجود معارف «إنسانية» أو بعبارة أدق «معارف ثقافية» تنسخ منها نسخة واحدة لجميع الأمم والشعوب، كما هي الحال في «العلم science» - التجريبي - الذي تتفق قوانينه وسننه في المادة والطبيعة.. علماً بأن هذا الاعتقاد المغلوط يتم فيما يمكن ملاحظته بسهولة لصالح «الثقافة» التي يتمتع أهلها بالغلبة والسيادة على مسرح التاريخ!

وليس حديثي هنا عن صعوبة - أو استحالة - تحقق «الموضوعية» في الانسانيات

---

(٢) الآيتان ٢٠ - ٢١ من سورة الذاريات

(٣) من الآية ٥٣ من سورة فصلت. وقد بنينا على هذا التمييز نتائج كثيرة في بحثنا «انسانية الثقافة الاسلامية» وفي بعض دراساتنا الأخرى.

والعلوم الاجتماعية ! ولكن عما هو أبعد من ذلك.. أتحدث هنا عن إنكار أن توصف هذه المعارف «بالانسانية» بهذا الاطلاق، أو بالمعنى الشامل أو المماثل للعلم التجريبي! وإنما يكون هذا الوصف مقبولًا حين يراد به فقط بيان أن هذه المعارف موضوعها الانسان، كفرد أو بوصفه عضواً في مجتمع، بغض النظر عن التعبير «الثقافي» الخاص، أو الخصوصية الثقافية التي توصف بها كل أمة من الأمم في دراستها للانسان، أو في تعاملها معه، وفهمها له! أما صعوبة تحقق الموضوعية المشار إليها فيأتي في سياق الاختلاف الثقافي أو الخصوصية الثقافية نفسها! لأن الإنسان يفكر من خلال لسان قومه الذي نشأ عليه، ومن خلال درجة معينة من «التراكم الثقافي» تلقاها أو انحدرت إليه.. قبل أن يسلك في عداد الباحثين أو المفكرين.

بل نقول أبعد من ذلك في تعليل نفي الموضوعية عن هذه الانسانيات والاجتماعيات – قبل أن نوضح في هذا البحث استحالة الإطلاق السابق نفسه – : إن «موضوع» الثقافة «وأداتها» شيء واحد، وان الموضوعية لا يمكن تحقيقها إلا اذا لم يتأثر الباحث بما يثيره فيه «الموضوع»! وفي هذه الحال : على الباحث إذن أن ينظر إلى نفسه أو إلى الإنسان على أنه «شيء».. وعليه أن يتحرر كذلك من الوسط الثقافي الذي يدرسه ويحكم عليه!! فإن نظر إلى الانسان على أنه شيء جاءت نتائج الدراسة أوغل ما تكون في الخطأ والفساد. أما التحرر من الوسط الثقافي فهو صعب التحقيق أو بعيد المنال، لأن الإنسان أيا كانت مكانة نزعته الإنسانية في الرفعة والسمو.. وأياً كانت درجة نزاهته وتجرده، وحتى لو كان مثالًا للخروج عن نطاق التأثر أو التعصب القومي أو الديني، فإنه لا يمكن أن ينفصل عن مجتمعه وبيئته، أو عن «الثقافة» التي يعكسها هذا المجتمع الذي نشأ فيه، بغض النظر عن طبيعة الاتصال بهذه الثقافة، وطبيعة التعامل سلبًا وايجاباً مع قيمها وأحكامها. وبغض النظر كذلك – أو في جميع الأحوال – عن أهمية العامل الذاتي أو الشخصي، وأثر عوامل النشأة في آراء أصحاب المذاهب.

ويمكننا أخيراً أن نلخص هذه النقطة الهامة بالقول : إن التعبير عن «العلوم الإنسانية والاجتماعية» ليس واحداً، كما هي الحال في علوم الطبيعة، ولكنه يتعدد بتعدد الثقافات.

-٢-

والمشكلة التي تواجهنا اليوم، أو التي ماتزال تواجهنا حتى الآن، هي وقوعنا في وهم الاعتقاد بوحدة «العلوم الانسانية»! أو في اعتقادنا المغلوط بوجود «معارف إنسانية» تنسخ منها نسخة واحدة - منقحة أم مصّحفة! - لجميع الأمم والشعوب. في الوقت الذي يتم هذا الاعتقاد - كما أشرنا قبل قليل - لصالح الثقافة التي يتمتع أهلها بالغلبة والسيادة على مسرح التاريخ. فإذا تذكرنا أن هذه الثقافة هي الثقافة الأوروبية أدركنا معنى «التغرب» أو التأورب الذي وقعنا فيه، وسبب «الفصام» أو التناقض والتعارض التي عانت منه «الشخصية الإسلامية» منذ عصر البعثات - الثقافية - وعصر الصدام مع الحضارة الأوروبية الغازية حتى الان. ولا أتحدث هنا عن هذا التغرب أو الفصام. ولا عن علاقته بتكريس التخلف وتأكيد الهيمنة الحضارية للغرب[٤] ، ولكن أتحدث فقط عن علاقة الثقافة الأوروبية بالتاريخ، بوصفه (الظرف) الذي يشير إلى جملة خصائص هذه الثقافة. دون الدخول في بيان هذه الخصائص أو متابعتها بالدرس والتفصيل، لأن ذلك يحتاج إلى دراسات موسعة وشاقة. كما سأقارن في الوقت نفسه الثقافة الإسلامية بالثقافة الأوروبية في هذا الباب، أي في علاقة كل منهما بالتاريخ! ليس من أجل أبراز الخصوصية التي تتمتع بها الثقافة الإسلامية، وما ينبني عليها من نتائج.. ليس لهذا فحسب، بل لأن الثقافة الإسلامية تمثل كذلك الصورة المقابلة تماماً لهذه العلاقة. وقد تفضي هذه الدراسة بدورها، أو من خلال هذه المقارنة، إلى بيان طرف هام من النتائج التي سوف ينتهي إليها الباحث في «أوروبية» ثقافة القوم من حيث النشأة والخصائص والأهداف.. في دراسة أو دراسات تخصصية موّسعة!

وغني عن البيان أن نسبة الثقافة إلى «أوروبا» أو وصفها بأنها أوروبية، في مقابل نسبة ثقافتنا إلى «الاسلام »، وعقد المقارنة بينهما مع اختلاف هذه النسبة أو الاضافة صحيح ولا غبار عليه، لأننا لا نتحدث هنا عن أوروبا بوصفها حقيقة جغرافية، ولكن بوصفها «حقيقة ثقافية وفلسفية تشتمل على القيم المتصلة الجذور بالحضارة الأوروبية،

---

(٤) راجع في هذا كتابنا : في الفكر والثقافة الاسلامية، طبع المكتب الاسلامي ١٩٩٠

والتقاليد اليهودية المسيحية» على حد تعبير «بريجنسكي»[٥]

-٣-

لقد تبلورت الثقافة الأوروبية، وأخذت ملامحها ، وسماتها، من خلال حركة المجتمع الأوروبي عبر عصوره التاريخية، وكانت في فحواها استجابة لحركة هذا التاريخ، حتى ليمكننا القول باختصار : إن التاريخ هو مجال استنباط «النظرية» ونعني بهذه الكلمة في هذا السياق الآراء والنظريات أو المذاهب في مختلف حقول الثقافة. في حين ان علاقة الثقافة الإسلامية بالتاريخ مغايرة تماماً لهذه العلاقة، لأن التاريخ عندنا هو مجال تطبيق «النظرية» وليس محل استنباطها. هذا إن أجزنا لأنفسنا استعمال كلمة «النظرية» وصفا للإسلام أو لثوابته التي جاء بها الوحي في الكتاب والسنّة. وقد يجوز لنا ذلك اختصاراً، ومشاكلةً أيضاً في هذا السياق.

وأبدأ أولاً بشرح هذه الفكرة أو القاعدة، على الصعيدين الأوروبي والاسلامي، ثم أشير بعد ذلك إلى طرف من النتائج الهامة التي تنبني عليها أو على هذا التفريق الحاسم بين علاقة كل من هاتين الثقافتين بالتاريخ.

وسوف أتولى شرح هذه الفكرة على الصعيد الأوروبي من خلال الحديث عن بعض حقول الثقافة الأوروبية - الهامة - وبخاصة تلك المتعلقة بأساسها المعرفي، ومسوّغاتها الدينية والفلسفية.. أو المتعلقة (بالتاريخ) نفسه بوصفه أحد هذه الحقول.

١ - اعتمد «كومت ١٧٩٨-١٨٥٧» في قانون الأطوار الثلاثة، أو قانون المراحل الثلاث التي تمر بها «المعرفة» على «تاريخ» المعرفة في المجتمع الأوروبي! وليس الحديث عن التطور من الفلسفة الدينية إلى الفلسفة العقلية.. ثم إلى الفلسفة التجريبية أو المنطق الوضعي أو الحسّي (الدين، العقل، الحسّ)[٦] إلا تعبيراً محضاً عن واقع المعرفة والفكر الاوروبي، أو الفلسفة الأوروبية وحدها دون سواها!

---

(٥) من محاضرة ألقاها في أواخر شهر تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٨٩ في الأكاديمية السوفيتيتة بموسكو، نقلا عن مجلة «نيويورك تايمز» انظر جريدة القبس ص ١٠ العدد رقم ٦٣٠٠ الصادر بتاريخ ١٩٨٩/١١/٢٢ ويقول بريجنسكي - مستشار الأمن القومي السابق في الولايات المتحدة الأمريكية - «وبقدر ما تتقاسم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي القيم الأوروبية بقدر ما تعتبران امتدادا لأوروبا».

(٦) انظر كتاب : الفكر الاسلامي الحديث للأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله، ص ٢٦٩. الطبعة التاسعة.

وحتى لو ارتقينا بهذا القانون! إلى ما قبل «كومت».. وصولاً إلى عهد الإغريق، فإنه لا يعدو أن يكون مستقى من التاريخ الأوروبي في عصوره المختلفة، القريبة والبعيدة، أو بعبارة أدق : فإنه لا يعدو اعتباره «قانوناً» استنادا إلى «وقائع» هذا التاريخ! فقد قيل إن معرفة «الإنسان»! كانت قبل تفلسف الإغريق ذات طابع ديني، ثم أصبحت على عهد سقراط وأفلاطون «عقلية».. ثم مالت على عهد أرسطو إلى التجربة والواقع[٧] . وربما كان «كومت» قد تأثر في نظريته هذه بنظرية الدورات الحضارية التي قال بها سلفه الإيطالي : فيكو G.VICO (١٦٦٨-١٧٤٤) الذي قال إن المجتمعات تمر بدورات حلزونية، مرحلة آلهية، تليها مرحلة بطولية، ثم مرحلة إنسانية! ثم يكون فناء المجتمع لتبدأ الدورة من جديد : مجتمعاً آلهياً ملهماً، يليه مجتمع يصنعه أبطال عظام، ثم مجتمع يعيش فيه قوم عاديون من البشر بغير خوارق أو أمجاد![٨] .

وقد عبر «فيورباخ» الألماني (١٨٠٤-١٨٧٢) عن نحو ما عبر عنه «كومت» مقتفياً أثره، ومتأثراً به فيما يبدو، حين قال : «الله كان فكرتي الأولى.. والعقل كان فكرتي الثانية، والانسان بمحيطه «الواقعي» هو فكرتي الثالثة والأخيرة»[٩] .

وبهذه المناسبة، فقد عبرنا في وقت سابق عن ملاحظتنا هذه على قانون كومت تحت عنوان : «الدين ليس مرحلة»، في سياق الحديث عن الإلحاد ومناقضته للفطرة الانسانية، فقلنا :

«إن الواجب يقتضينا هنا أن نشير إلى أن تزيين الإلحاد للناس، والايحاء إلى المثقفين بأن التدين إنما يمثل مرحلة من مراحل الفكر الانساني أُطلق عليها في تاريخ الفلسفة أو الفكر مرحلة الفلسفة الدينية، وأنها ذهبت ليحل محلها الفلسفة العقلية.. ثم جاءت على أعقابها أخيراً الفلسفة التجريبية أو المنطق الوضعي أو الحسّي (الدين، العقل، الحس) هذا الإيحاء مصدره الجهل بأن هذه المراحل ليست مراحل إنسانية، ولا تعبر عن تاريخ الانسان، كما لا تعبر عن حقيقته، ولكنها تعبر

---

(٧) كتاب «الدين» للأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله، ص٨٤ دار القلم بالكويت ١٩٧٤.

(٨) راجع كتاب: علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية للدكتور صلاح مصطفى الفوال، ص ٢٩ عالم الكتب ١٩٨٢.

(٩) كتاب الدكتور البهي رحمه الله، ص٢٨١.

عن تاريخ تطور الفكر في المجتمع الأوروبي وحده دون سواه. وإذا كان الأوربيون يتحدثون عن هذه المراحل بوصفها مراحل تنطبق على كل الأمم والشعوب - كعادتهم - أو من وجهة نظرهم، أو بوصفها مراحلهم على أقل تقدير، فإن المشكلة عندنا تكمن في النقلة والمترجمين الذين ساووا المثقفين الأوربيين في هذا الاعتبار.

«إن هذه النواحي أو الأبعاد الثلاثة، من وجهة النظر الاسلامية، أمور متجاورة في النفس الانسانية في الوقت الواحد.. فالإنسان حس وعقل وروح! وإذا صادف أن المجتمع الأوروبي لظروف خاصة تعامل مع هذه الأبعاد على أنها أدوار متعاقبة لا أمور متجاورة، لظروف كثيرة خاصة بهم، فليس معنى ذلك أن يتابعهم جميع الناس على هذا الخطأ والفساد.. وبخاصة في المجتمعات الاسلامية التي لا يجهل فيها العامي - قبل المثقف - أن الفلسفة الدينية الاسلامية لا تتعارض مع العقل، ولا تهمل المادة أو الحس.. وهل يجوز لمثقف مسلم - لا يعتبر نفسه سفيراً للثقافة الأوروبية - أن يعتبر الدين أو الفلسفة الدينية هذه مرحلة تاريخية يجب أن تنتهي ويحل محلها العقل أو الحس؟!»(١٠) .

٢ - ومن الطريف ان المناقضة، أو الصراع بين الدين والعقل - في تاريخ القوم - هي التي حملت، في مثال بارز، فيلسوفاً مثل «جورج سنتيانا» على تفسير «عقيدته الدينية» أو تأويلها على نحو لا يناقض العقل، حتى يلبي في نفسه، في الوقت ذاته، الحاجة إلى الإيمان والاعتقاد.. حين قال في الكاثوليكية :

«إنها أجمل ما في الوجود على شرط ألا تفهم بتفسيرها الحرفي وإلا لكانت متناقضة»! بل حين قال في الإيمان، أمام هذا الواقع الديني، أو المفردات الدينية - المسيحية - المناقضة : « إن الإيمان غلطة جميلة اكثر ملاءمة لنوازع النفس من الحياة نفسها»!(١١) قلت : أيستقيم هذا في نظر الإسلام؟ أم يستقيم في نظر العقل الذي لم يعرف معاناة هذا الفيلسوف وأمثاله من رجال الفكر الأوربيين؟ لأن ما كان اكثر ملاءمة للنفس من الحياة ذاتها لا يكون غلطة! سواء أكانت جميلة أم قبيحة!

---

(١٠) دراسات في الفكر الاسلامي، للمؤلف ص ٧١ - ٧٢ طبعة عام ١٩٨٦ مكتبة الفلاح. وانظر كتاب الدين للدكتور دراز رحمه الله ص٨٥.

(١١) قصة الفلسفة الحديثة، تأليف زكي نجيب محمود وأحمد أمين ص ٤٠٢ .

علماً بأن هذا الفيلسوف – الاسباني المولد، مدريد ١٨٦٣ – نسب إلى الإيمان المفقود ! أو إلى اللاأدرية لقوله : «إنني أصدق المذهب الكاثوليكي، ولو أنني أعلم أنه كاذب!» ولأنه أشار في كتابه «العقل في الدين» إلى أنه ما فتيء يحب العقيدة الدينية ويقدرها كما يحب الرجل المرأة التي خدعته!!.. الخ.

٣ – ويقرب من هذا عندنا تقسيم الفيلسوف الألماني «عمانوئيل كأنت» للعقل إلى عملي ونظري، فالعقل العملي وظيفته الإيمان، وأما العقل النظري فوظيفته التعامل مع الطبيعة[١٢] . وقد وقف «كانت» بهذا العقل – أو بالعقل في مفهومه العام أو الاسلامي – عند حدود عالم الشهادة، حتى لا يضطر إلى المناقضة عن طريق التسليم بميتافيزيقا هي ضد العقل ومناقضة له! فكان الحل أو الخروج من هذا المأزق في قسمة العقل إلى نصفين أو إلى عقلين نظري وعملي.. وللعقل العملي ان يسلم بما وراء الطبيعة، من حيث كان التطلع إلى ما وراء الطبيعة.. أو من حيث كان الإيمان والاعتقاد فطرة أو ضرورة أو حاجة إنسانية!

قلت : وهذا الرأي المشهور لا معنى له في اطار الثقافة الاسلامية، أو في ضوء العلاقة بين الدين والعقل في الاسلام. وقد يكون في وسعي – أو من واجبي – أن أتحدث عن قسم دور العقل، ولكن لا يمكنني أن أسلم بحال بصحة قسم العقل على النحو الذي تحدث عنه كأنت، لأن العقل إذا كان قد خُلق من أجل أن يمارس وظيفته في نطاق عالم الشهادة، فليس معنى ذلك أنه ليس في وسعه أن يؤمن من خلال هذا النطاق نفسه بعالم الغيب، أو بما وراء الطبيعة.. بل إن القرآن الكريم يشير إلى أن الاستدلال على عالم الغيب يكون بعالم الشهادة، أو ينطلق من هذا العالم نفسه ببعديه : الطبيعة والانسان.. وهذا في متناول كل عاقل «عقلاً نظرياً» أو عقلاً لا يقر القسمة التي قال بها «كانْت» أو ذهب إليها «قال تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون» وقال تعالى : «إن في السموات

---

(١٢) قصة الفلسفة الحديثة، المصدر السابق. فقرة : «نقد العقل العملي» ص ١٩٤ فما بعدها. ط ٦ مكتبة النهضة ١٩٨٣. والدين عند «كانت» لايمكن أن يقوم على أساس من العلم والعقل، ولكن يجب ان يرتكز على دعامة من الأخلاق! ص ١٩٤، ويقول : «لا يجوز ان يقام الدين على أساس من العقل النظري». ص ١٩٩. ولم يستطع كانْت في جميع الاحوال إلا أن يخلط في حديثه هذا بين الدين والكنيسة، ورجال الدين، والطقوس الكنسية. ص ١٩٩–٢٠٠.

والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم».

وحين نقف بالعقل عند حدود عالم الشهادة، ونمنعه من النظر في «كنه» عالم الغيب.. فإن هذا لا يفضي بنا إلى قسمة العقل إلى نظري وعملي، ليس لأن «الإيمان» بما وراء الطبيعة حصيلة أو نتيجة للنظر في الطبيعة.. ليس لهذا فحسب، بل لأن ما جاءني كذلك من مسائل عالم الغيب، وأعني به ما جاءني من هذه المسائل عن طريق «الوحي» - أو الدين - ليس فيها ما يناقض أصول العقل (النظري) أو يلغيها ويعتدي عليها! وهكذا فإن الغيب أو الميتافيزيقا في الاسلام ليست ضد العقل، ولكنها فوقه، وتشمل ساحة دل «العقل» - النظري! - على وجودها، من جهة. ولم يأت منها من طريق الوحي - وليس العقل العملي التسليمي!! - ما يناقضه أو يضادّه أو يلغي وجوده.. أو يلجيء إلى قسمه وتمزيقه، من جهة أخرى. قال تعالى في سورة الملك : «وقالوا لو كنّاً نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» فعطف العقل على السمع (الوحي) بـ«أو» إشارة إلى دلالتهما الواحدة التي لا تناقض فيها ولا اختلاف.

٤ - وفي مثال بارز آخر : إن تأكيد أصحاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية بزعامة «دوركهايم» على أن الدين ظاهرة اجتماعية، نبتت من الأرض ولم تهبط من السماء، ربما يعود فيما نقدر إلى أن «دوركهايم» لاحظ أثر المجتمع في «تطوير» العقيدة الدينية عبر «عصور التاريخ»! فدفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن الدين من وضع الهيئة الاجتماعية أو من نبات المجتمع نفسه[١٣] ، لأن التعديل والتطوير - أو التغيير والتبديل - قد يوحي بالوضع والاختراع من الأصل! خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار «حجم» التطور الذي لحق بالدين في مجتمع دوركهايم أو في المجتمعات المسيحية، حتى أصبح الحديث عن «تاريخ» العقيدة المسيحية أو تاريخ تكوّنها أو تشكيلها جزءاً ضرورياً لفهم مذاهبها وطقوسها!

---

(١٣) نقول ذلك على الرغم من أن «دوركهايم» ذهب في الحديث عن دور المجتمع في الدين إلى اكثر مما قلناه. وعلى الرغم من الطريق الطويل والمعقد الذي سلكه لتأكيد هذا الدور، والذي وصل عند «دوركهايم» إلى حد القول «ان التدين وليد أسباب اجتماعية» بل إلى حد الزعم «بأن الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته» جميعا! بمعنى ان «الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر»!! انظر كتاب الدين للدكتور دراز، ص ١٥٠، ١٥٣ وانظر فيه طرفا هاما من نقد هذه الآراء، وان شئت قلت : الأوهام.

وغني عن البيان أن الثقافة الإسلامية ليس فيها شيء اسمه «تاريخ العقيدة الإسلامية»! يتوقف عليه فهم هذه العقيدة أو عرضها اليوم على الناس، لأنها واحدة كما أنزلها الله تعالى - أو كما جاءت في النظرية الإسلامية ان صح هذا التعبير - لم تتبدل، ولم تأخذ ملامحها عبر العصور. وأما التأويلات التي ذهبت إليها الفرق الإسلامية المختلفة، أو بعبارة أدق : الفهوم الخاصة ببعض «عصور التاريخ الإسلامي» فليست ضرورية أو لازمة لفهم النصوص القرآنية التي تناولت هذه العقيدة.. فضلاً عن أن تكون قاضية على هذه النصوص أو حاكمة عليها! ولاشك بأن جزءا من ذلك يعود إلى التكفل الإلهي بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل. وهكذا فإن التأويلات أو الفهوم المنحرفة عبر التاريخ لا يمكن عزلها وتجاوزها في هذا العصر فحسب، بل يمكن كذلك مناقشتها والحكم عليها الآن وفي المستقبل أو في جميع العصور. ولا يمكننا مع هذا كله أن نعد «التاريخ» عاملاً في بلورة هذه العقيدة أو تشكيلها!

وسوف يتضح لنا من خلال الفقرة التالية، التي نتناول فيها علاقة الثقافة الاسلامية بالتاريخ، كيف أن هذه الثقافة التي صنعت التاريخ ولم يصنعها التاريخ، كانت كذلك.. أو هي قادرة دوماً على تصحيح مساره والحكم عليه! ويمكن عد هذا التصحيح جزءا من صنعه بطبيعة الحال.

٥ - وقد يكون من المناسب في هذا السياق أن أتحدث عن أثر «التاريخ» في سائر المقولات الأوروبية عن الدين، بالإضافة إلى مقالة «دوركهايم» هذه ومقالة أوغست كونت السابقة! خصوصاً ،أن المقارنة هنا مع الثقافة الإسلامية، بوصفها ثقافة دينية!، ولكن المجال لا يتسع في هذا البحث. وقد قمنا بجمع ودراسة هذه المقولات في بحث آخر. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أهم عناوين هذه المقالات :

تعريف الدين أو تعريفاته، والصراع بينه وبين العلم، وفصل الدين عن الدولة. وقول ماركس : إن الدين أفيون الشعوب. و«النظريات» التي قيلت في تفسير نشأة العقيدة الدينية، والاعتقاد بأن الانسان ترقى بايمانه أو (بموضوع) عقيدته من الشرك إلى التوحيد. وكذلك : النظرية الدينية التي قيلت في تفسير أصل الدولة أو نشأتها الأولى. أقول : كل هذا نابع من الواقع التاريخي، أو هو صدى لتاريخ

الدين في المجتمع الأوروبي.

٦ – أما في الاقتصاد، بوصفه من أهم حقول الثقافة، أو بوصفه دين العصر الأوروبي أو الدين البديل! فقد اعتمد «ماركس» في معالجته أيضا على «التاريخ» أي على تاريخ الاقتصاد الأوروبي، لان نظرية ماركس الاقتصادية نشأت وتطورت في ظل التطور الصناعي في ألمانيا البروسية، فجاءت هذه النظرية محاولة لفهم طبيعة الرأسمالية، من جهة، وشديدة التركيز على الاقتصاد القومي، والحديث عن توجيه الجماعة وقيادتها في ذلك المجتمع، من جهة أخرى(١٤) . ولقد تحدث كل من ماركس وإنجلز، دوماً وعلى الرغم من الصبغة العالمية التي أضفيت على النظرية الماركسية في الاقتصاد، عن أمة ألمانية، وعن وطن ألماني.. بل عن طبقة عاملة ألمانية كذلك!!

بل إن المذهب المادي التاريخي الذي دعا إليه ماركس وبشر به، يقوم في جملته – كما يقول الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله – « على تحليل الحوادث التاريخية بواسطة تطبيق مباديء البحث الجدلي، القائم على مبدأ النقيض»(١٥) ولا أقف هنا عند المنهج، ولكن أشير فقط إلى «الحوادث التاريخية» التي شكلت «مادة» البحث الأولية، وأساس النظرية الحقيقي! بغض النظر عن «علمية» الحوادث التي استند إليها ماركس، و«حجم» الاستقراء الذي قام به على الصعيد الأوروبي نفسه!. ومع الاشارة أخيراً إلى الآثار الواضحة التي تركها هذا المذهب في مختلف حقول الفكر والثقافة الأوروبية!

٧ – فإذا رجعنا إلى «التاريخ» نفسه، وجدنا أنه قد فسرت أحداثه، ووضعت فلسفته، وقسمت مراحله من خلال (التاريخ الأوروبي) أو من خلال هذا التاريخ وحده دون سواه. الأمر الذي يؤكد كل ما ذهبنا إليه حتى الآن، لأن تقسيم التاريخ (الانساني) واستنباط فلسفة لهذا التاريخ من خلال دراسته والوقوف على أحداثه لا يمكن أن يتحقق أو يأتي صحيحاً دون أن يشمل تاريخ (الانسان) أو تاريخ الأمم والحضارات! ولا يبدو أن أصحاب الثقافة الأوروبية فعلوا ذلك.. أو بعبارة أدق : يبدو أنهم لم يفعلوا ذلك في معظم الحالات. وحين قرأ بعضهم تواريخ الأمم أو

---

(١٤) الفكر الاسلامي الحديث للدكتور البهي، ص ٢٨٣ ، ٣٠٠.

(١٥) المصدر السابق، ص ٢٨٣. ط ٩.

اطلع على حضارتها، فقد فعل ذلك بوصف هذا التاريخ نموذجا للتطبيق وليس محلا للاستنباط، ! أي كنموذج لتطبيق فلسفتهم التي سبق لهم أن وضعوها من خلال تاريخهم، وليس كجزء من استقراء شامل ينبغي أن يسبق الاستنباط أو الاكتشاف. ولهذا جاءت مثل هذه الدراسات محكومة بالمركزية وعقدة التفوق!

فالمراحل العشر التي فسر بها «كوندرسيه ١٧٤٠-١٧٩٤» التاريخ الإنساني منذ فجر الخليفة حتى القرن الثامن عشر - هكذا! - هي المراحل التالية : المرحلة الطبيعية، مرحلة الرعي واستئناس الحيوان، مرحلة الزراعة، مرحلة الحضارة اليونانية، مرحلة الحضارة الرومانية، مرحلة العصور الوسطى المسيحية، مرحلة عصر الإقطاع، مرحلة اختراع الطباعة، مرحلة الثورة الفرنسية. وأخيراً مرحلة مستقبل الانسانية[١٦]!! وهذه هي مراحلهم بطبيعة الحال.

وحين اتسع كتاب «شبنجلر ١٨٥٦-١٩٣٦» - سقوط الحضارة (أو تدهور الغرب) لاستقراء ثقافات العالم، لم يناقش منها سوى ثمانية أنماط قال إنها الأنماط الأساسية للثقافة وهي : المصرية، وبلاد ما بين النهرين، والثقافة الهندية، والصينية، والكلاسيكية! والمجوسية!! والمایاوية. وأخيراً : الثقافة الغربية.

إفريقية لاتعدو أن تكون موضوعا (جغرافيا) للاكتشاف! وربما صلحت نموذجا لمرحلة الرعي واستئناس الحيوان، أو مرحلة الزراعة - في النسق الأوروبي السابق - وآسية هي آسية المتوحشة كما يفهم من كلام ماركس.. أو هي المتخلفة في كل العصور![١٧] والحضارة العربية الاسلامية بمساحتها الجغرافية الهائلة، وامتدادها «التاريخي» الطويل لا تستحق أن تدرس أو يلتفت إليها ولو كمرحلة من مراحل (التاريخ الانساني) على الأقل! والثقافة العربية لا تستحق عند اشبنجلر أن تعد مع الثقافة المایاوية - المجهولة لنا على الأقل! - أو المجوسية. أي استقراء هذا للتاريخ الانساني؟ وأي فهم لهذا التاريخ؟

وهكذا كلما أمعن الانسان النظر في مختلف حقول الثقافة الأوروبية، وبخاصة في أساسها المعرفي ومسوغاتها الدينية والفلسفية كما قلنا، لاحظ اعتمادها على

---

(١٦) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية للدكتور صلاح الفوال، ص ٣٠-٣٣.

(١٧) انظر : في مهب المعركة، للأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله، ص ٢٠ دار الفكر بدمشق ١٩٨١.

أحداث (التاريخ) أي اعتبارها التاريخ المجال أو المصدر للنظريات والمذاهب في مختلف تلك الحقول.

٨ - والنقطة التي نوردها أخيراً هي أن هذه السمة الأوروبية لاينقصها ولا يقلل من خطورتها بعض الدراسات والآراء - الأوروبية - التي حاولت اثبات أن حركة التاريخ ذاته - او بدوره - قد تأثرت بالعوامل الدينية. كما فعل «ماركس فيبر ١٨٦٤-١٩٢٠» في دراسته عن أثر الفكر الديني في نشأة الفكر الاقتصادي : على سبيل المثال. لأن الحالة الأوروبية أو السمة الأوروبية باقية ومستمرة في هذه الحال. فقد أصر «فيبر weber» على أن المذهب البروتستانتي وحده هو الذي مهد لظهور الرأسمالية وعمل على تقويتها، لأن العمل الرأسمالي بالنسبة للبروتستانتي ليس مجرد اشباع للاحتياجات الضرورية، ولكنه كذلك مسألة إرضاء ضمير وتمسك بقيم الدين. بل انه، أي العمل، جزء من الدين ذاته لا يقل شأناً عن الصلاة[١٨] .

هذا الرأي الذي يعكس، بإجمال، دور الدين في القيام بالنشاط الاقتصادي وتكوين الثروات يأتي بدروه في النسق الأوروبي، أو في «حركة التاريخ» التي كانت أصلاً وراء الاصلاح الديني، أو نشوء المذهب البروتستانتي نفسه. وحين يؤثر (التاريخ) في (الدين) أو في العقيدة الدينية.. قد يعود الدين أو تعود هذه العقيدة للتأثير في حركة التاريخ أو في ثقافته مرة أخرى. والتاريخ في كلتا الحالتين هو تاريخ أصحاب هذه المذاهب من الأوروبيين.

- ٤ -

فإذا انتقلنا إلى الثقافة الإسلامية، لاحظنا أن الأمر على عكس ماهو عليه في الثقافة الأوروبية. واذا جاز لنا أن نطلق على الإسلام في هذا السياق لفظ «النظرية» - على سبيل المشاكلة كما قلنا - فإننا نقول : ان التاريخ عندنا هو مجال تطبيق النظرية وليس محل استنباطها! بمعنى أن الثقافة الإسلامية - أو النظرية الإسلامية - لا تصاغ اليوم ولا تستنبط من خلال حركة التاريخ الاسلامي، أو من خلال مراحله المختلفة. لان هذه الحركة في أساسها استجابة للوحي أو للكتاب والسنة.. أو للإسلام

(١٨) علم الاجتماع، مصدر سابق، للدكتور الفوال. ص ٣٥.

بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة. وقد تقلبت هذه الحركة مداً وجزراً، وصعوداً وهبوطاً، تبعاً لمدى تحقق المجتمعات الإسلامية بالشروط القرآنية، أي تبعاً لفهم هذه المجتمعات للنظرية الاسلامية، أو مدى قيامها بالإسلام بجميع عناصره ومواصفاته ومكوناته الثقافية.

ولا يملك أي جيل من أجيال المسلمين حصانة تجعلهم يحلون محل «النظرية» أو امتيازاً يعطيهم الحق في تعطيلها أو تعديلها، أو تجعل من سلوكهم - بحد ذاته - مبدأ أو فكرة أو بنداً من بنود الثقافة الإسلامية بوجه عام، كما لا يملك ذلك أي فرد من الأفراد بطبيعة الحال. وينبغي الاشارة في هذا السياق إلى أن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت إيذاناً بانتهاء العصمة وانقطاع الوحي.

وفي ضوء ما قدمنا لم يعد مبدأ أو «مصدر القياس الشرعي» - الذي يأتي بعد الكتاب والسنة - يحتاج إلى تعليل. وفي ضوئه كذلك نفهم لماذا اشترط الفقهاء لصحة «الاجماع» أن يكون له مستند من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. كما نفهم في ضوئه كذلك الشروط التي تجعل من عمل الصحابي أو من عمل أهل المدينة حجة على سبيل المثال.

بل إن صاحب ظلال القرآن رحمه الله حاول أن يفرق، في نطاق التاريخ الاسلامي نفسه، بين «تاريخ المسلمين» وبين ما أسماه «الواقع التاريخي للاسلام» فلم يجز ان ينسب إلى هذا الواقع التاريخي كل ما فعله المسلمون «في تاريخهم»، ولكن ينسب إليه «كل ما فعلوه موافقا تماما للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة » أي لما أطلقنا عليه - مشاكلةً كما قلنا - النظرية الإسلامية. أما الأول فيحسب على أصحابه وحدهم، ولا يحسب على الإسلام نفسه. قلت : ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن أن يشكل رافداً من روافد الأحكام والنظريات، فضلاً عن أن يكون مصدرها التي يشكل ملامحها عبر العصور!

وتبدو لنا قيمة هذا التفريق - الذي ذهب إليه سيد قطب رحمه الله - في نطاق عصر التنزيل على وجه الخصوص، لأن المزية التي تمتع بها جيل الصحابة من حيث آفاق الفهم وميادين التطبيق.. لم تشفع في اعتبار «واقعهم التاريخي» أو حتى السكوت عنه، حين شابه خطأ أو ضعف او قصور! كما حدث يوم أحد أو يوم حنين، على سبيل المثال. بل نزل القرآن الكريم يسجل عليهم النقص والخطأ، ويدلهم على مواطن

الضعف.. مشيراً إلى سنن الابتلاء التي ذاقوها أو حلت بهم! إن الهزيمة التي لحقت بهم يوم أُحد نزل فيها وفي يوم أحد آيات كثيرة. منها قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» الآية ١٥٩ من سورة آل عمران. فقد أمرت هذه الآية الكريمة النبي صلى الله عليه وسلم بالتزام الشورى! على الرغم من أن هذه الهزيمة جاءت في اعقاب شورى النبي لأصحابه[١٩] وبسبب غير مباشر منها! ولكن هذه الهزيمة لا يمكن لها ان تبرر تجاوز هذا المبدأ أو الانتقاص منه! فضلا عن تكريس نقيضه، بحجة الواقع الذي أفرزه أو انبنى عليه!!

هل نقول بهذه المناسبة : إن الأحكام العرفية أو «تعليق» الحقوق، ومصادرة الآراء الأخرى أمر لا يمكن إقراره أو التسليم بجوازه بحال في ظل مبادئ الإسلام؟

وفي وسعنا أن نضيف هنا فكرة أخرى يمكن اعتبارها متممة لفكرتنا هذه عن العلاقة بين الثقافة والتاريخ، على الصعيدين الإسلامي والأوروبي، وهي أن «التاريخ» واكب (الفكرة) أو الثقافة أو النظرية، ومشى في ركابها طيلة عصر التنزيل أو من خلال «البعد الزماني» لنزول القرآن الكريم - والذي استغرق كما هو معلوم ثلاثا وعشرين سنة - الأمر الذي أتاح للنظرية أن تقوم بمهمة التصحيح والتصويب لوقائع التاريخ، أو لحركة التطبيق والتنفيذ.. وهكذا قدم جيل التنزيل النموذج الافضل، والمثال الذي يحتذى[٢٠] .

وفحوى ذلك أن النظرية هي المهيمنة، وهي المصوبة لمسار التاريخ.. وأنها تملك ذلك لا في هذا العصر فحسب، بل تملكه على الدوام، أو في كل العصور. وهذه واحدة من فوائد أخرى كثيرة لتنجيم القرآن، أي لنزوله مفرقاً عبر البعد الزماني المشار إليه.. لم يلتفت إليها في الماضي. ويقرب من هذه الفائدة، ويتصل بها هنا - بمناسبة الحديث عن العلاقة بين الثقافة و«التاريخ» الإسلامي - أن هذا التنجيم اتسع لأحداث السيرة النبوية ووقائعها الكبرى.. ليس كطريق من طرق التوثيق ارتقى بها إلى درجة التواتر..

---

(١٩) انظر «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب رحمه الله، ص ٥٣٢-٥٣٣ (المجلد الأول) طبعة ٤ دار الشروق ١٩٧٧.

(٢٠) راجع كتابنا «علوم القرآن» المبحث الخاص بالنسخ، ص ٢٠١ الطبعة الثانية ١٩٨٤ المكتب الاسلامي.

فحسب، بل بوصفها كذلك قاعدة التاريخ الإسلامي وطليعته التي تتقدم «عمل» جيل التنزيل، أو التي تفاعل معها هذا الجيل نفسه. وفحوى ذلك جميعه أن هذا التنجيم اتسع للحديث عن السنن النفسية والاجتماعية من خلال نفاذها ووقوعها في المجتمع الإسلامي طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومدة نزول القرآن. أي من خلال البعد العملي أو «التطبيقي» لهذه السنن في الوقت الذي أشار القرآن الكريم إلى هذا الوقوع أو النفاذ في مواطن «تاريخية» أخرى كثيرة من خلال «قصص الأنبياء» وتاريخ الأمم السابقة على الأمة الإسلامية، ولم يكتف القرآن الكريم في ذلك كله بعرض هذه السنن على شكل قواعد أو قوانين فحسب. وحين نقول ان الله سبحانه وتعالى لم يقص علينا جميع قصص الأمم والأنبياء السابقين.. بل اكتفى من ذلك بمواطن العبرة والدلالة[٢١] – وهذا سر تكرار بعضها من الوجه الآخر – فكأننا نقول : ان القرآن الكريم يحدثنا عن السنن الثابتة والقوانين المصاحبة للمجتمعات الانسانية في جميع العصور. والذي نود أن نشير إليه أخيراً – تلخيصاً وإضافة – هو أن القرآن الكريم بوصفه خاتمة الكتب السماوية، تكفل أولاً، من خلال بعده التاريخي بذكر تاريخ النبوات وحياة الأمم والمجتمعات الإنسانية السابقة. وارتقى بهذا البعد الماضي أو السابق على عصر نزوله.. إلى عصر خلق الإنسان وبداية رحلته على الارض – الأمر الذي يحق للمرء ان يتساءل معه عن مصطلح «ما قبل التاريخ» ما معناه؟ وما مدلوله في إطار الثقافة الاسلامية –

وقد نزل في حراسة هذا البعد التاريخي، وتوثيقه وتأكيد علميته قوله تعالى : «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[٢٢] وهي العلمية التي لا يزيدها مرور الزمان أو كلما ارتقت بالإنسان وثائقه واحافيره ودراساته.. الا تأكيداً ووثوقاً جيلاً بعد جيل[٢٣] .

ثم تكفل القرآن الكريم ثانياً – أو في الوقت نفسه – ومن خلال البعد الزماني للنزول، بذكر معالم سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وحياة الجماعة الاسلامية الأولى معه في عهديها المكي والمدني. أي ان هذا البعد الزماني للنزول هيأ

---

(٢١) دراسات في الفكر الاسلامي، للمؤلف. مصدر سابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢٢) الآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٢٣) راجع : علوم القرآن، للمؤلف. ص ٣٦٦-٣٦٩ (الفقرة الخاصة بتفسير الآية المذكورة).

الفرصة لضم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أو قصته بعبارة أخرى، إلى سائر قصص الأنبياء وحياة الأمم وأحداث التاريخ الكبرى منذ آدم ونوح.. وهي الأحداث التي ختمت بأعظم وقائع التاريخ الانساني، وهي واقعة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن.

وهكذا ارتقى القرآن الكريم بالسيرة النبوية – النبراس والمثل الذي يحتذي إلى يوم القيامة – ووقائع الجماعة الاسلامية الأولى إلى مقام التواتر والتوثيق الإلهي.. ولم يدع هذه الوقائع وتلك السيرة وحدها – أو دون أحداث التاريخ والأمم والأنبياء السابقين – للرواة والقصاص والمؤرخين.. بالغاً ما بلغت عدالتهم أو درجة ضبطهم وتوثيقهم.. وغني عن البيان في هذا المقام أنه لا كتاب بعد القرآن يوثّق أو يهيمن!

لا غرو اذن ان تنزل سائر كتب الله تعالى على الأنبياء السابقين جملة واحدة! وأن ينفرد القرآن الكريم بنزوله منجما خلال ما يوازي بناء جيل طليعي واحد من أجيال التاريخ. فالتوثيق الذي منحه القرآن الكريم – فوق الدروس والعبر التي من حق سائر الأجيال أن تقف عندها وتستفيد منها – لقصص الأنبياء السابقين.. لم يبخل به عن سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين.. ولولا النزول المنجم للقرآن لما أدركنا كيف كان سيتم ذلك.

وهكذا، فنحن إذن أمام ثقافتين احداهما صنعت التاريخ، والثانية صنعها التاريخ .

—٥—

نعود للاشارة إلى معالم النتائج التي تنبني على هذا التفريق، لأن استعراضها بشيء من التفصيل يحتاج إلى دراسة موسعة!

١ – وأبرز ما نشير إليه من هذه النتائج أن سائر التيارات أو (الطروحات الفكرية) التي شهدها العالم العربي والإسلامي منذ عصر الصدام او البعثات السابق، والتي تجاوزت أصول الثقافة الاسلامية أو ثوابتها القرآنية، كانت تمت بصلة إلى الثقافة الاوروبية، وتمتد إلى جذورها ومعطياتها التاريخية تلك! وهذا هو فحوى التغريب أو التغرب الذي حملنا عليه أو سعينا إليه! أو بعبارة أخرى : كان هذا هو

مبدأ دخولنا في (الأوربة) أو الاطار الأوروبي! ان «الصدمة الثقافية» – والحضارية – التي أصابتنا أمام الزحف الاستعماري على بلادنا، وأمام عصر النهضة التي كانت تعيشه أوروبا في ذلك الحين أسقط فيْ نفوسنا وعقولنا ثقافة «عصر الركود» التي كانت لا تسمن ولا تغني من جوع! والتي وقف معها العقل الاسلامي عن الفاعلية، وكأن لسان حاله يقول – بعد أن أغلق باب الاجتهاد وانقطع ما بين المسلمين وبين معارفهم الأولى الدينية الثقافية، والعلمية التجريبية : إن مفكري وعلماء عصر سابق قد فكروا وعملوا لكل العصور!...

ولكن هذا الإنجاز الإيجابي صاحبته خطوة سلبية كبيرة، حين تقدمنا إلى شعارات عصر النهضة الأوروبية وثقافة عصر النهضة الأوروبية نطلبها سبيلاً للتقدم، ولبلورة ثقافة عصر نهضة إسلامي جديد! مغفلين أثر التفاعلات الاجتماعية التاريخية في صنع الثقافة الأوروبية، وأن هذه الثقافة نتاج مرحلة تاريخية معينة، أو تطور تاريخي معين خاص بالقوم في بيئتهم ومفاهيمهم عن الدين والدولة،.. والإنسان والمجتمع... الخ.

ان التاريخ الإسلامي، أو التاريخ الذي صنعه المسلمون في تاريخهم الطويل، بمراحله المختلفة، ومعطياته الفكرية والثقافية لا يصلح الآن مصدرا للنظريات إذا أردنا ان نبلور ثقافة عصر نهضة جديد! فكيف لنا أن نفعل ذلك من خلال التاريخ الأوروبي، أي من خلال معطياته الثقافية بوصفه مصدر النظريات كما أوضحنا حتى الآن؟! وهكذا وجدنا أنفسنا.. أولاً في نطاق «التغريب» حين أُشيعت فينا ثقافة القوم زمن الاستعمار والاحتلال.. ثم في نطاق «التغرب» حين بتنا نطلب بأنفسنا هذه الثقافة بقوة الاقتناع أو الانصياع!

ولهذا لم يكن من سبيل المصادفة ان وجدنا – على سبيل المثال – غلاة الفكر القومي في بواكيره الأولى يحاولون فهم الرسالة الإسلامية (أو الدين الإسلامي أو دعوة محمد صلى الله عليه وسلم) في ضوء آراء «دوركهايم» عن الدين، وفي ضوء الحركات القومية التي اجتاحت أوروبا في القرن الثامن عشر، حين نسبوا تلميحاً أو تصريحاً دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى عوامل البيئة أو الزمان، وجعلوا من دعوة الإسلام صورة من صور العبقرية العربية! وحتى قطعوا أو كادوا

يقطعون صلتها بالوحي أو السماء![٢٤]

أو وجدنا الماركسيين – على سبيل المثال – لا يقعون على اسم أو موقف أو وقائع ومراحل تاريخية يشرحون من خلالها «نظريتهم» المستعارة أو المنقولة! وحين فطنوا إلى ذلك في وقت لاحق لم تشفع لهم كل محاولات التجميل التي قاموا بها لتعريب هذه النظرية.. أو حتى أسلمتها.. فضلا عن تسميتها بغير اسمها في بعض البلاد أو في بعض المراحل.

ولهذا أيضاً لم يكن من سبيل المصادفة ان يبحث هؤلاء جميعاً.. وغيرهم كثير عن «نسب» لأفكارهم الهجينة التي لا تمت إلى العروبة ولا الإسلام بصلة في «تاريخ» المسلمين السابق، أو تاريخ المجتمعات الإسلامية السابقة او ان يحاولوا «استنبات» هذه البذور في تربة هذا التاريخ.. حتى ولو لم توجد في غير حركات الرفض والمناقضة والخروج عن الإسلام وأساسياته الثابتة. أي في غير الدائرة الحقيقية للتاريخ الإسلامي! ومع ذلك فقد جاءت محاولة الاستنبات أو البحث عن الجذور هذه شديدة التعسف والتحريف! وان كانت تشير، من حيث المبدأ، إلى ملاحظتهم أثر التاريخ في الفكر الأوروبي.. الأمر الذي حملهم على «منهجية» مماثلة في إطار تعريب أفكارهم أو أسلمتها! فراحوا يبحثون عنها في تاريخ المسلمين – ان صح اطلاق هذا الوصف على القرامطة والزنادقة والباطنية – لا في مباديء الإسلام! أذكر بهذه المناسبة دراسة غريبة المنزع، تحمل عنوان : «الجذور التاريخية للقومية العربية»![٢٥] مزج فيها من اجل اثبات هذا النسب، أو هذه الجذور، الافتراضات و«الانشاء» بتأويلات وفهوم فاسدة لنصوص التاريخ، أو استنطاقها بما لا تدل عليه، بل بما يريد الباحث! فبعد ان قال في صفحاتها الأولى ان «القومية العربية هي الوعي العربي بمظهره الأخير» و«أنها لم تكن صدى لحركات قومية أخرى بل انها تعبير عن تنبه ذاتي وتجديد لهذا الوعي عن طريق التحرر والحياة الكريمة»! ذكر

---

(٢٤) يقول ميشيل عفلق : «فالإسلام إذن حركة عربية، وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها» ويضيف : «إن يقظة العرب القومية اقترنت برسالة دينية، أو بالاحرى : كانت هذه الحركة – الدينية – مفصحة عن تلك اليقظة القومية»!! انظر كتابه : في سبيل البعث، ص ١٢٧ الطبعة السادسة ١٩٧٢ دار الطليعة بيروت.

(٢٥) للأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري. راجع الصفحات ٩، ٥٣–٥٥ طبع دمشق.

أنه لن يحاول تقديم تعريف للقومية العربية، لأنه لا يرى ذلك مقبولاً! ولا أعرض هنا لنقد هذه الدراسة، ولكنني أكتفي بالاشارة إلى أحد المواقف الفاسدة التي اتخذها الكاتب من «أحداث التاريخ» وصولا لذلك النسب، او استنباتا لتلك الجذور! يقول :

«ومن الطبيعي ان تقف السلطة الأجنبية الحاكمة، بويهية او سلجوقية، موقفاً عدائياً من الروح العربية والمنظمات الشعبية!! وحاولت تشويه دور تلك المنظمات وتسويد صفحاتها، فلما انتعش العباسيون في القرن الثاني عشر للميلاد! ادركوا مالهذه المنظمات الشعبية من قيمة وأهمية!! وحصل تطور خطير وهو الاتفاق بين منظمات الفتوة من جهة، وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى في كفاحهم ضد الفوضى الاجتماعية وضد العدوان الأجنبي سواء أكان تركياً ام صليبياً»!! هـ. ص٥٤. قلت : الأتراك السلاجقة الذين حكموا بغداد في ظل الخلافة العباسية من أواسط القرن الخامس الهجري.. يمثلون اذن عدوانا اجنبيا كالعدوان الصليبي على الأمة العربية، أو القومية العربية لا أدري! سواء بسواء!! لماذا هذا التشويه؟ لنزعم أن جذور القومية العربية ضاربة في أعماق التاريخ من أيام الجاهلية إلى اليوم.. أو حتى العصر الحديث الذي قال فيه الدكتور بدوره : «وحين بدأ الوعي العربي الحديث صدر عن مقومات الأمة العربية وعن الجذور التاريخية التي لاحظناها. فقد بقيت اللغة العربية مصدر اعتزاز للعرب، وبقي إرثهم الثقافي يؤثر فيهم رغم التحجرات، وبقيت لديهم فكرة الأمة العربية وإن خالطها الشعور الاسلامي»!! ص٥٥ قلت : وكأن اللغة العربية بعيدة عن الاسلام، أو كأن الشعور الإسلامي هذا جهل أو منقصة؟! أو لا يجوز له أن يخالط فكرة الأمة العربية!

أعود فأقول : السلاجقة العظام الذين كان الفضل لوزيرهم المشهور «نظام الملك» – ولعله اكبر وزير في تاريخ الاسلام – في التمكين للثقافة الإسلامية في مواجهة الحركات الباطنية والقرمطية التي كادت ان تعصف بدولة الإسلام في القرن الخامس الهجري[٢٦] والسلاجقة العظام الذين قاوموا الزحف الروماني والغزو

(٢٦) انظر الفقرة الخاصة بالسلاجقة في تمهيد كتابنا : الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن. طبع مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٠. ومعلوم ان السلاجقة الذين حكموا بغداد – كسلاطين – في ظل الخليفة العباسي منذ عام ٤٤٧ كانوا سنة شافعية، في حين أن أسلافهم البويهيين الذين حكموا من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ كانوا شيعة معتزلة.

الصليبي - ولا يجهل مؤرخ مطلع كصاحب هذا البحث معركة ملان كرد ووقفة القائد السلجوقي البطل ألب ارسلان - لا يجد الباحث بأساً من جمعهم مع الصليبيين، ويا لعجائب المفارقات، في «خانة» واحدة، أو في قائمة واحدة.. هي قائمة العدوان الأجنبي على الأمة العربية!!

قلت : ولو ان المشروع النهضوي الذي قدمه اصحاب الفكر القومي لم يتجاوز هذه المواقع، وامثالها التي جاءت على ألسنة «مفكرين» قدامى آخرين.. اذن لما استحق مناقشته أو النظر إليه! ولكن من الملاحظ ان «المقص السحري» الذي حاول أصحاب هذا الفكر ان يمروا به على التاريخ العربي الإسلامي.. وتاريخ الدولة العربية الإسلامية - أموية كانت أم عباسية! - لم ينجح في فصم التاريخ العربي عن التاريخ الإسلامي.. أو في فصم العلاقة الدائمة بين العروبة والإسلام... ولهذا فقد تم طرحه فيما يبدو في إحدى زوايا الإهمال في التاريخ المعاصر. كما تم طرح الآراء التي حاول أصحابها الانتقاص من أبعاد الاسلام - غير الروحية والتاريخية - أو التي لم تدرك لزوم حضور الإسلام في أي مشروع للنهضة في العالم العربي بوصف الإسلام يمثل المشروعية العليا التي لا يمكن أن يلتقي العرب على غيرها في يوم من الأيام مهما طال البحث، وتعددت الولاءات والإنتماءات.

٢ - وربما كانت الإشادة بحركات القرامطة والزنج والحشاشين - فيما وراء استخدامهم أسانيد للماركسيين العرب - أو التنويه الخاص باخوان الصفا، بوصفهم المعين الذي استقت منه معظم حركات المناقضة والرفض فكرها وفلسفتها في التاريخ الإسلامي.. أقول : ربما كانت هذه الإشادة تعود إلى الأحكام التي أطلقها عليهم المستشرقون أو الدارسون الأوروبيون!

فنحن هنا أمام نتيجة أخرى من نتائج هذا الفرق الحاسم بين الثقافتين الإسلامية والأوروبية - في علاقة كل منهما بالتاريخ - لأن أمر هذه الأحكام حين لا يعدو أن يكون خطأً في المنهج.. يمثل في نظر المستشرقين تطوراً أو منزعاً إنسانياً - عقلياً أو عرفانياً - يعترف للإنسان بعدم الخضوع المطلق للنصوص الدينية، أو الفلسفية الغيبية! ويكفي ان نقول ان نظرة المستشرقين إلى الأسلام حين ترتقي إلى أعلى المراتب، فلن تعدو إلحاقه بالمسيحية، بوصفه ديناً يجري عليه بطبيعة الحال

ما جرى على المسيحية من تأويل أو نقض او تجاوز! او انتقال منها إلى مرحلة العقل او الحس! ومن المعلوم أن «البروتستانت» لم يستطيعوا ان يخلوا ذهنهم من فكرة ضرورة «الاصلاح الديني» - على النمط المعهود لديهم - في دين من الأديان![٢٧] .

ولهذا. فان أحكامهم غالباً ما تأتي مقلوبة أو معكوسة اذا لاحظنا دور «الكتاب والسنة» - أو النصوص الدينية عندنا - في صنع التاريخ! فالعصر الذي بلغ الغاية في تطبيق هذه النصوص، أو في تطبيق النظرية الإسلامية، وأعني به جيل التنزيل على وجه الخصوص، يوصف بعصر التزمت أو الجمود، وربما أفرد بالنقد اللاذع! فضلاً عن المحاولات الدائبة للنيل من مقام النبي صلى الله عليه وسلم في أمور اضحت معهودة مألوفة! في الوقت الذي تجري الإشادة باخوان الصفا، وبسائر الفرق الباطنية الغالية والمناقضة في «تاريخ المجتمعات الاسلامية»!!

والمشكلة الحقيقية، أو النتيجة السلبية حقا هنا، ليست في أعمال المستشرقين أو الدارسين من غير المسلمين.. ولكن في تبني المسلمين لهذه الأعمال - لأسباب يطول شرحها - على أنها أعمال علمية «موضوعية» صالحة للنقل والترجمة، أو للاقتباس والتعميم في الأوساط الثقافية الإسلامية! انني لا أنفي عن هذه الأعمال «الموضوعية» أو النزاهة، بمعنى صدورها عن قصد الاساءة، وتعمد التحريف والتجديف، وإن تم ذلك في معظم الأحيان أو في احيان كثيرة، ولكنني أزعم نفي هذه الموضوعية من حيث «ثقافة الباحث» أو عقليته أو طريقته في الحكم والتناول، لأنه هذه الطريقة أو الثقافة إذا كانت صالحة لدراسة التاريخ الأوروبي، فإنها ليست صالحة لدراسة التاريخ الإسلامي!!

الثقافة الإسلامية، بثوابتها ومسلماتها، صنعت التاريخ! ومصدر هذه الثوابت الوحي أو الغيب، فكيف يتأتي فهم هذا التاريخ لمن لا يؤمن بنبوة محمد، وإنما يرى فيه «زعيماً» أو مصلحاً «جسّد» آمال قومه ومصالحهم في زمن بعيد! أو كيف يتأتي فهم هذا التاريخ لمن يعهد من تاريخ تطور المعرفة والفكر الفلسفي في ثقافته

---

(٢٧) الفكر الاسلامي الحديث للدكتور البهي رحمه الله، ص. وغني عن البيان أن الاسلام لا يرتقي في الثقافة الأوروبية وفي كتابات المستشرقين إلى هذا الحد!!

التي رضع لبانها ونشأ عليها أن الدين مرحلة من مراحل هذا الفكر، وتلك المعرفة في التاريخ على أقل تقدير.

وأكتفي بهذه الاشارات أو الخواطر السريعة في هاتين النقطتين.

٣ - ونصل هنا إلى نتيجة أخرى تتصل بهذه النتيجة الأخيرة، وهي ان المسلمين وحدهم دون سواهم «يقدسون الماضي» كما يقال، أو يتطلعون إلى الوراء أو ينظرون إلى الخلف.. في حين أن سائر الامم تتطلع إلى الأمام! وبغض النظر عن الحكم على هذا الموقف «السلفي» - الذي أوضحنا في بعض المناسبات السابقة أنه موقف «تقدمي»!، وكما سنوجز ذلك بعد قليل - فإنه قد أضحى الآن مبرراً أو مفهوماً في نطاق حديثنا عن الخصوصية التي تمتع بها تاريخ المسلمين في صدوره عن الثقافة الإسلامية.. أو في صنعه الذي تم من خلال هذه الثقافة! ومعلوم أن عصر السلف، أو عصر الصحابة مثل قمة الفهم والتعامل مع هذه الثقافة، أو مع أساسياتها وثوابتها التي جاء بها الكتاب الكريم ونطقت بها السنة المطهرة.

ولهذا فإن العالم الإسلامي كان يجد نفسه أمام الدعوة إلى الأصول أو الرجوع إلى عهد السلف كلما وجد نفسه أمام خيارات حاسمة.. أو أمام خيار أن يكون أو لا يكون! فعل هذا في الماضي بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ. الأمر الذي يفسر «النهضة السلفية» كما يمكن أو يجب ان تدعى! والتي قادها ابن تيمية وابن كثير وابن القيم وابن حجر والشوكاني.. بعد ان أسست دور القرآن ودور الحديث بهذه الكثرة العجيبة في دمشق بعد سقوط بغداد!

كما فعل العالم الإسلامي ذلك في الحاضر بعد سقوط الخلافة الإسلامية على يد اتاتورك في نهاية الربع الأول من هذا القرن الميلادي، الأمر الذي يفسر النهضة السلفية الثانية او الجديدة التي ولدت في مصر في أعقاب هذا السقوط، وامتدت من ثم في سائر بقاع العروبة والاسلام.. والتي نجحت في تجاوز ثقافة عصر الركود أو بقايا هذه الثقافة التي أشرنا إليها. من وجه. ولم تسقط في مناخ الثقافة الأوروبية أو تخضع لقيمها تحت شعار المعاصرة أو الحداثة.. من وجه آخر.

ولقد كان هذا هو التعبير الحقيقي عن هوية الأمة وانتمائها... بغض النظر عن أن هذا التعبير أخذ شكل «الاتجاه» في زحمة «الاتجاهات» المنقولة الأخرى القومية أو

الماركسية.. التي رفعت شعار «العلمانية» أو انطلقت في ظله، وبغض النظر عن الأخطاء التي وقع فيها أصحاب هذه الهوية - الاتجاه فيما بعد، سواء أكانت أخطاء في «التصور» - أي الفهم والعقل عن الكتاب والسنة، وتنزيل الأحكام على واقع الشعوب والمجتمعات الإسلامية - أم أخطاء في الممارسة!.. ولكن الكلمة الأخيرة لن تكون في العالم الإسلامي لغير الثقافة الإسلامية.. أو لغير الكتاب والسنة، وعصر السلف مرة أخرى!

هذا التطلع إلى الوراء ليس انتكاساً أو تخلفاً! ولكنه السبيل إلى التقدم والسير إلى الأمام. وأناقش الآن صحة هذه القضية من زاوية واحده، وهي الزاوية المتعلقة بموضوع هذا البحث - التاريخ - تاركا شرح زواياها أو وجوهها الأخرى إلى موقف آخر.

هذا الربط بين (الحدث) أو الفعل التاريخي، وبين (الماضي) و(المستقبل) يشير إلى اعتماد مبدأ (الزمان) مقياساً للتقدم والتخلف! أو مقياساً للحكم على صحة المباديء والعقائد أو أولويتها وأولوية الثقافات بوجه عام، وبحيث تصبح الفكرة أو القاعدة ان الحاضر خير من الماضي، وان المستقبل خير من الحاضر. أو بحيث تصبح القاعدة لزوم التطور المستمر، وضرورة التطلع الدائم إلى الغد!

والذي يمكن ملاحظته بسهولة ان هذا الأمر قد ينطبق على الثقافة الأوروبية، وعلى سائر الثقافات الأخرى التي صنعها (التاريخ) - أي الزمان - حيث يتاح لأبناء هذه الثقافات عبر هذا التاريخ ان ينضجوا تجاربهم، ويصححوا اخطاءهم.. ومن ثم ينتقلون من موقع إلى موقع افضل منه. أقول : «قد» ينطبق هذا على الثقافة الأوروبية السائدة، ولكن لا يمكن الذهاب إلى هذا الرأي على سبيل الجزم والقطع.. أو على سبيل السنة والقانون، بل يبقى مجرد احتمال ضعيف، لأن الانسان في هذا الجانب - الثقافي - قد يتراجع إلى الوراء ولا يتقدم إلى الأمام! وقد يسقط من حسابه أحكاماً وقيماً وعقائد وفلسفات تكشف له الأيام المقبلة أنها صحيحة، أو انها أصوب من تلك التي أخذ بها أو انتهى إليها. وقد تكون هذه محصلة أو فحوى سقوط فلسفات كثيرة معاصرة، كالوجودية والماركسية على سبيل المثال. وهذا هو أيضا فحوى التراجع الذي يتم في إطار الثقافة الأوروبية اليوم في وظيفة المال وفلسفة الاقتصاد، وفي مفهوم الحرية

(٢٨) إنسانية الثقافة الاسلامية، للمؤلف. ص ٣٦-٣٧ طبع المكتب الاسلامي، بيروت ١٩٨٠.

وحدودها.. وفي شئون المرأة وروابط الاسرة.. أو في فهم أبعاد النفس الإنسانية في التربية وعلم النفس.

وقد أوضحنا في أكثر من مناسبة سابقة ان «الزمان» لا صلة له بالحكم على الثقافات، وما تنطوي عليه من مباديء وشرائع وأحكام، بالصحة أو الفساد. كما أوضحنا في الوقت ذاته أن تقدم الانسان في باب التعامل مع الطبيعة لاصلة له كذلك بالحكم على ارتقائه في باب التعامل مع الذات على نحو مماثل، أو بالحكم على «ثقافته» بالصحة أو الصواب. أو بعبارة اخرى : إن قدرة الانسان على الاختراع والاكتشاف في ميدان الآلات أو الوسائل ليس من الضروري أن يصحبه تقدم مماثل في الباب الثقافي أو في باب التعامل مع الإنسان. قلنا في بحثنا «إنسانية الثقافة الإسلامية» بعد ان أوردنا التقسيم الدي صدرنا به هذا البحث، وبعد ان أوضحنا من خلاله الجانب المتطور في الإنسان :

«إن ملاحظتنا هذه عن الطبيعة الذاتية والطبيعة الخارجية - أي الانسان والكون - تذكرنا بأن صلاح المباديء والشرائع يقاس بمدى تعاملها الشامل والمتوازن مع الإنسان سواء أصنع الانسان آلات أم لم يصنع، وسواء أمضى على تلك المباديء مئات السنين أم عشرات الساعات!!

«وإن من أسوأ صور الانتكاس في العقل والفهم ان يقول بعض الناس : الدين الذي جاء في عصر الخيام كيف يدين به الناس في عصر الصاروخ؟ والدين الذي مضى على نزوله مئات السنين كيف ينادي به الناس في القرن العشرين؟!.. » الخ وكأن المطلوب من الدين حيلة صناعية، أو ارتقاء في باب الاسباب والمعاش! «إن التطور أو المحوار أو التداول في باب الثقافة أو المعارف الإنسانية ليس بين التقدم والتخلف، ولا بين السلفي والخلفي.. ولكن بين الحق والباطل، والصحيح والسقيم، والصالح والطالح، والصواب والخطأ... وليس الخيار بين ثقافة جامدة وأخرى متطورة! أو بين ثقافة سلفية أو أصولية، وأخرى تقدمية. ولكن بين ثقافة صحيحة وأخرى فاسدة..»[٢٩] .

---

(٢٩) من مقالة للمؤلف بعنوان : السلفية موقف تقدمي، نشرت في زاوية «قضية ورأي» في جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٦. وقد قدمنا في شرح هذه الفكرة أسبابا وملاحظات أخرى، في هذه المقالة، وفي بعض المحاضرات و«الندوات» العلمية.

ونقول بهذه المناسبة – وتعقيبا كذلك على هذا الفرق الحاسم الذي قام حوله هذا البحث بين الثقافتين الاسلامية والأوروبية – إن التطور، أو التبديل والتعديل الملحوظ في الآراء والنظريات التي قدمتها الثقافة الأوروبية، في باب التعامل مع النفس الإنسانية، أو في باب القيم التي ينبغي ان تسود حياة الفرد وتنظم حياة الجماعة.. أو في سائر قضايا السلوك الإنساني.. هذا التطور أو التغيير يسير في اتجاه البحث عن الحق والصواب.. ومعناه ان هذه الثقافة، وسائر الثقافات التي ما يزال يلحق بها تغيير أو تعديل قريب أو مماثل، لم تصب بعد وجه التعامل «الحق» مع الانسان، وانها على غير ما يراد منها تلبية لجميع خصائص الانسان، وتعاملا شاملا ومتوازنا معه، سواء أصنع آلات أم لم يصنع.. وسواء أوصل إلى القمر أو لم يصل.. لأن هذا الوصول لايعني (صواب) التعامل مع النفس الانسانية.. ولا صلة له بحل مشكلات حياة الإنسان على الأرض، أو رسم صورة السلوك الإنساني القويم فوقها.. كما أن هذا التعديل والتبديل ليس معناه أن الذي لاينتهي إلى آخر طبعة من طبعات هذه الثقافة المعاصرة أو القائمة في عالم القوم.. وعالم اليوم مع الأسف.. سلفي أو رجعي أو متخلف.. إلى آخر هذه الصفات والنعوت.

وغني عن البيان أن من حق الإنسان، بل من واجبه حين يصل الى الصواب ان يقف عنده وينتهي إليه. ونحن لا نشك في ان نهاية هذا التطور المزعوم ، أو هذا «التجريب» بعبارة أدق، سوف يفضي إلى الاعتراف بالاصول الثقافية الثابتة التي رضيها الله تعالى لعباده في وحيه الأخير للإنسان.. وهو الوحي المتمثل في الكتاب والسنة، أو سوف ينتهي إلى هذه الاصول ويقف عندها «ولتعلمن نبأه بعد حين»(٣٠) . ولهذا قلنا إن الدعوة الى أحكام هذا الوحي، أو العودة إلى الكتاب والسنة.. أو الدعوة إلى السلفية – بهذا المعنى أو بهذا المفهوم الشامل – هي الدعوة «التقدمية» الحقيقية في العالم الإسلامي..

ولا يقال أخيراً ان جانباً كبيراً من الثقافة الإسلامية، أو جانب البرامج الواسع اجتهادي أو تفسيري.. بدليل ما جرى على هذه الثقافة، كسائر الثقافات الأخرى، من الجمود أو الركود على سبيل المثال. والاجتهاد والتفسير من عمل العصور (أو التاريخ)

---

(٣٠) الآية الأخيرة – ٨٨ – من سورة ص.

وحتى تم وصف هذه الثقافة في عصور الازدهار بالتنوع.

ذلك أن التمييز أو التفاضل بين هذه الاجتهادات، وترجيح بعضها على بعض يتم دائماً في ضوء ثوابت الوحي التي لا تتبدل، وفي ضوء اعادة القراءة.. أو تجديد التعامل. وفي هذه الحال تبقى العودة إلى الأصول أو التطلع إلى الخلف - إذا لاحظنا فقط تاريخ البعثة ونزول القرآن - أساس كل نظرة نحو المستقبل، وأساس كل تقدم نحو الأفضل.. سواء سلم بعضنا بأن قراءة عصر السلف أو جيل التنزيل تمثل القراءة المثلى والاجتهاد الأفضل، أم لم يفعل. والله تعالى أعلم.